الخصوصية الوسطيّة للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي وأثرها في المجتمعات الإفريقيّة

بقلم
د. نبيل موفق
قسم الشريعة ـ معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي
mouafeknabil@yahoo.com

ملخص البحث

يحاول الباحث من خلال بحثه أن يجلّي معنى الوسطيّة والخصوصية المغاربيّة للمذهب المالكي باعتباره المذهب السّائد في الغرب الإسلامي وأن يبيّن أهمّ معايير تلك الوسطيّة، وأهمّ آثارها في استقرار المجتمع وتماسكه وأمنه، ومدى انتهاج الحواضر العلمية في الغرب الإسلامي للوسطيّة والاعتدال وكيف كان ذلك سبيلاً لإقناع المجتمعات الإفريقيّة بدعوة الإسلام ونشر تعاليمه، كما حاول الباحث رصد أهمّ العوامل التي أسهمت في شدّ أواصر التّواصل بين الغرب الإسلامي وبلاد السودان والصّحراء الإفريقيّة، وكيف أنتج ذلك التّواصل بناء حواضر علميّة تنهج النّهج الوسطيّ في التّحصيل والتّدريس والتّديّن والسّلوك، والذي أدّى بدوره إلى استقرار وتوطين الإسلام في تلك البلاد من خلال البعد عن كلّ أنواع وألوان وأشكال العنف والتّعصّب والتّطرّف الفكري الذي أدّى في وقتنا الحاضر إلى نشوب قلاقل وفتن سياسية، نتج عنها صراعات وحروب أهلية كان من ورائها الاستعمار الأوربيّ الذي تعاني منه تلك البلاد-بعض دول إفريقيا-.

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين...وبعد:

فإنّه من المسلّم به أنّ الغرب الإسلامي عُرف باتّباع المذهب المالكي كمذهب فقهيّ وسلوكيّ منذ الزّمن البعيد ولا يزال كذلك، فظهور الفقه المالكي في تلك الرّبوع له مميّزات وخصائص متعدّدة اتّسمت بها عن غيرها من المدارس المالكيّة بالمشرق الإسلامي نظير المدرسة المدنيّة والمصرية والعراقية؛ وهذا التّمايز والتّنوّع الفريدان فرضتهما جملة من العوامل والأسباب التي ألقت بظلالها الوارفة على طرق استثمار الخطاب الشّرعي في إفادة الحكم التّكليفي على وزان قواعد الفقه المالكي.

ذلك أنّ النّاظر في فقه المدرسة المالكيّة في الغرب الإسلامي يلحظ تجلّياتها بارزةً في عموم المجتمع

المغاربي اجتماعياً وثقافيّاً وسياسيّاً وفكريّاً وسلوكيّاً، فأضحى شأنها بذلك يتعدّى الجانب الفقهيّ التّعبّديّ إلى اعتماده منهجاً للحياة في جوانبها المادّية والمعنويّة، ومساراً للإبداع وإبراز تفوّق الذّات في مجالات شتّى الشّيء الذي أسهم في الحفاظ على الهويّة الثّقافية والحضاريّة للغرب الإسلامي.

وإنّ النّاظر الحصيف في خصوصية المدرسة المالكيّة في الغرب الإسلامي تتكشّف له ملامح مميّزة من أهمّها ميزة الوسطيّة والاعتدال من خلال النّظر في أصول وفروع المذهب، والتي ناسبت خصوصيات المجتمع المغاربي فزاد ذلك في تمسّكهم به حتّى أضحت أحكامه واختيارات فقهائه واجتهادات علمائه قوانين منظّمة للحياة العامة للمجتمع المغاربي، وقد أسهم ذلك بشكل كبير في بقاء هذا المذهب في تلك البلاد؛ ويمكن القول بأنّ المذهب المالكيّ وإن كان ميلاده في بلاد المشرق إلاّ أنّ الممارسة العلمية والعملية والوسطيّة له والتّخريج عليه كانت خصوصيّة محفوظة لبلاد الغرب الإسلامي.

وقد كان من آثار الخصوصيّة الوسطيّة أن تعدّدت الحواضر العلميّة في بلاد الغرب الإسلامي فظهرت حاضرة إفريقية (تونس) والقيروان، وبجاية، وتلمسان، ومازونة، وفاس، ومراكش، وقرطبة، وغرناطة في الأندلس، وأدّى ذلك إلى كثرة الرّحلات العلمية طلباً وتحصيلاً خاصّة إلى بلاد إفريقيا والسّودان ممّا مهّد الطّريق إلى نشر الإسلام وتعاليمه الوسطيّة السّمحة في المجتمعات الإفريقيّة؛ فأضحت بعد ذلك هذه الأخيرة محضناً للفقه المالكي وأنشئت بها هي الأخرى حواضر علمية أخذت نهج الوسطيّة مبدأً لها فراحت ترسّخ دعائم الإسلام في تلك الرّبوع الصّحراويّة الإفريقيّة على غرار حاضرة تمبكتو وغيرها، فأصبح السودان الإفريقي يعكس الكثير من البصمات المغاربيّة التي ارتسمت على أهله مع مرّ التّاريخ، وقد انبثقت بشكل تدريجيّ عن سيرورة من التّفاعل الحضاري بين المغرب الإسلامي والسّودان ما تزال العديد من معالمه ماثلةً إلى يوم النّاس هذا، وقد شمل ذلك التّفاعل مجالات شتّى دينيّة واجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة؛ لكن بصمة المجال العلمي والدّيني المتمثّلة في نشر الإسلام وتعاليمه الوسطيّة السّمحة يبقى من أكثرها رسوخاً واستمراراً ومقاومةً لعوادي الزّمن.

وعليه هل يمكن لنا أن نجلّي الخصوصية الوسطيّة للمذهب المالكي باعتباره مذهباً فقهيّاً للحواضر المغاربيّة؟ وما مدى تأثير تلك الحواضر بوسطيّتها الدّينيّة والعلمية والفكريّة في المجتمعات الإفريقيّة؟

وللإجابة عن تلكم الإشكالية توخّيت البحث في النقاط التّالية:

-المبحث الأوّل: معالم الخصوصية الوسطيّة للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي.

-المطلب الأوّل: مفهوم الخصوصية الوسطيّة.

-المطلب الثاني: معايير الوسطية وآثارها.

-المطلب الثّالث: بعض مظاهر الوسطيّة في التّقعيد الأصولي والفقهي المالكي.

-المبحث الثّاني: أثر وسطيّة الحواضر العلمية للغرب الإسلامي في المجتمعات الإفريقيّة.

-المطلب الأوّل: المراكز الحضريّة المغاربيّة والإشعاع العلمي الدّاخلي.

-المطلب الثّاني: مظاهر تأثير المدرسة المغاربيّة بوسطيّتها في الأقطار الإفريقيّة ومجتمعاتها.

-خاتمة.

ومن الأهداف المرجو تحقيقها ما يلي:

1-بيان معنى الخصوصيّة الوسطيّة للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي باعتباره المذهب السّائد لفهم النصوص الشّرعية وتطبيقها.

2-بيان مظاهر الوسطيّة والاعتدال التي تميّز بها الفقه المالكي في أصوله وفروعه واجتهادات فقهائه وعلمائه وكيف كانت سبباً وعاملاً من العوامل التي أسهمت في زيادة اقتناع الشّعوب الإفريقيّة بالإسلام وتعاليمه.

3-تسليط الضّوء على الإشعاع العلمي للحواضر المغاربيّة بنهجها للوسطيّة والاعتدال تديّناً وسلوكاً ومدى تأثيرها في المجتمعات الإفريقيّة.

4-بيان معايير الوسطيّة وآثارها في تماسك المجتمع والحفاظ على أمنه واستقراره وخصوصياته وعاداته وتقاليده.

5-البحث في العوامل التي أسهمت في التّواصل الدّائم والمستمر بين منطقة الغرب الإسلامي وبلاد السّودان والصّحراء الإفريقيّة لاسيما عامل الوسطيّة التي تتميّز بالواقعية والشمولية والمرونة والثّبات، وكلها خصائص للفقه المالكي في الغرب الإسلامي.

المبحث الأوّل

معالم الخصوصية الوسطيّة للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي

المطلب الأوّل: مفهوم الخصوصية الوسطيّة

-الفرع الأوّل: مفهوم الخصوصية.

الخصوصيّة في صيغتها النّحويّة عبارة عن مصدر صناعي مأخوذة من "الخاء والصّاد" الدّالين على خلق فرجة بين شيئين حتّى يظهر تمايزهما، قال ابن فارس:"خصصت فلان بشيء خصوصية، بفتح الخاء وهو القياس لأنّه إذا أفرد واحداً فقد أوقع فرجة بينه وبين غيره"[1].

ومنه كذلك "اختصّ فلان بالأمر وتخصّ له إذا انفرد، وخصّ غيره واختصّه ببرّه، ويقال فلان مخصّ بفلان أي خاص به وله به خصيّة"[2].

هذا من حيث اللّغة وتفاريعها، أمّا من حيث المفهوم المصطلحي فإنّ الخصوصية هي تلكم المعالم والإشارات والعلامات الدّالة على التّميّز والتّفرّد الذي يكسب الشّيء بصمته وهويّته الخاصة.

ونحن هنا نريد أن نستكشف خصوصية الوسطيّة في المذهب المالكي في الغرب الإسلامي من

---

[1]-أبو الحسن أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م، مادة(خصّ)، ج2، ص153.

[2]-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط2، 1414هـ، مادة (خص).

خلال تفحّص بعض قواعده الأصولية والفقهية والمقاصدية والاجتهادية التي جعلت من الفقه المالكي فقهاً متوازناً في أصوله وفروعه واجتهاداته .

-الفرع الثّاني: أنواع الخصوصية.

نقصد بأنواع الخصوصية هنا تلكم البنيات والمميّزات الجغرافية والحضارية والثقافية المتنوّعة التي أسهمت في جعل المذهب المالكي مذهباً متفرّداً منذ العصور القديمة بل منذ نشأته إلى أن دخل بلاد المغرب الإسلامي واستمراره في تلك الدّيار إلى يومنا هذا، ولعلّ من أهمّ مظاهر الخصوصية الوسطيّة للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي ما يلي[3]:

أ-الخصوصية الإقليمية (الجغرافية): فمن نتائج وسطية المذهب المالكي انتشاره في أكبر الأقاليم العلمية في بلاد المسلمين وذلك أصولاً وفروعاً، فكانت منها المدرسة المدنية وقد تميّزت بانتهاج منهج الوسطية في التّعامل مع النّصوص، ثمّ ظهرت بعد ذلك المدرسة المصرية حيث وجدت صعوبات كثيرة بانتهاجها للوسطية في ظل التّعصب الذي كان قائماً أنذاك لاسيما مع فتنة القول بخلق القرآن، وهي دعوة متطرّفة فكرياً نتج عنها تطرّفاً سياسيّاً، ثمّ ظهرت المدرسة العراقية وتميّزت بانفتاحها على المذاهب الأخرى وهو أكبر دليل على وسطيّتها واعتدالها وعدم تعصّبها، ثمّ ظهرت المدرسة المغاربية التي تميّزت هي الأخرى بالوسطيّة التي تمازجت مع طبيعة المغاربة؛ فالمذهب المالكي كما هو معروف عنه مذهب عملي يعتمد على الواقع ويأخذ بأعراف النّاس وعاداتهم فهو فقه عملي أكثر منه نظري يتماشى مع الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكلّف أو تعقيد، وأهل المغرب بطبعهم يميلون إلى البساطة والوضوح ويفرّون من النّظريات المتطرّفة والتّأويلات البعيدة المتكلّفة[4].

ب-خصوصية التّنوّع الثّقافي: لمّا كانت بلدان المغرب قد عرفت توالي أمم مختلفة عليها أسهمت في خلق تفاعل متنوّع التمثّلات فإنّ الأمر ذاته يقال إبّان الفتح الإسلامي للمنطقة فبعد أن توافد عليها عدد كبير من العرب أصبحوا مواطنين بها لكن رغم هذا الامتزاج والاختلاط العرقي بين العرب والبربر فقد ظلت هناك خصوصيات لكل من العرقين متمثّلة في اللّغة والتّقاليد والعادات والاحتفالات التي ظلّت تحمل الطّابع الأهلي الأصلي، بل حتّى الأثر التّشريعي كان له نصيب من هذه الخصوصية، والمذهب المالكي بحكم وسطيّته استطاع فقهاؤه أن يحتووا هذه الفروقات بين سكان البلد الواحد لضمان الاستقرار الاجتماعي فأبدعوا ما يسمّى بدليل ما جرى عليه العمل والاحتكام إليه فوجد أهل الغرب الإسلامي ضالتهم للمحافظة على خصوصياتهم في ظل هذا المبدأ فتجد عمل أهل تلمسان وعمل أهل فاس... [5] .

---

[3]-منصور رابح جلول، المدخل إلى الفقه المالكي، دار النهضة، دمشق، ط1، 1427هـ/2006م، ص37.

[4]-عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1993م، ص36.

[5]-عمر الجيدي، العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما لدى علماء المغرب، مطبعة فضالة، الرباط، 1404هـ/1984م،

وهذا يؤكّد لنا خصوصية الفقه المالكي في الغرب الإسلامي ووجود البعد التّشريعي الاجتهادي ذي الملامح الوسطية والتي جعلت المغاربة مستعدّين تمام الاستعداد لتلقّي المذهب المالكي لما فيه من اتّساع لآليات الاجتهاد والتّشريع العملية[6].

-الفرع الثّالث: مفهوم الوسطيّة.

أ-الوسطية في اللّغة: من مادة (وسط) تدلّ على معان متقاربة، يقول ابن فارس:" الواو والسين والطّاء بناء صحيح يدلّ على العدل والنّصف وأعدل الشّيء أوسطه ووسطه"[7].

وفي لسان العرب:" كلمة وسط تضبط على وجهين: الأوّل بسكون السّين فتكون ظرفاً بمعنى (بين) تقول: جلست وسط القوم أي بينهم، والثّاني: بفتح السّين وتأتي لمعان متعدّدة متقاربة فتكون:

1-اسماً لما بين ظرفي الشّيء وهو منه فتقول: قبضت وسط الحبل، كسرت وسط القوس، جلست وسط الدّار.

2-صفة بمعنى (خيار) وأفضل وأجود وأوسط الشيء أفضله.

3-بمعنى (عدل) ووسط الشيء وأوسطه أعدله.

ونجد أنّ العرب تطلق كلمة وسطاً وتريد بها معان الخير والعدل والجودة والرّفعة والمكانة العالية، والعرب تصف فاضل النّسب بأنّه وسط في قومه، وفلان من واسطة قومه أي من أعيانهم، وهو من أوسط قومه أي من خيارهم وأشرفهم"[8].

ب-الوسطية في القرآن الكريم: وردت في قوله تعالى:﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطا﴾ (البقرة143). وقد ورد تفسيرها بأنّها بمعنى: عدولا خياراً[9].

ووردت كلمة"الوسطى" في قوله تعالى:﴿حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ (البقرة138)، ومن أقوال المفسّرين في هذه الآية أنّ معناها الأفضل، وقيل هي الوسط بين الصّلوات[10]، والشّاهد هنا هو الارتباط بين هذه الأقوال ومعاني الوسطيّة سواء أكانت بمعنى التّوسّط بين شيئين أو بمعنى الخيار الأفضل.

ووردت كلمة (أوسط) في قوله تعالى:﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفّارته إطعام عشرم مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم...﴾ (المائدة89).

ص354.

[6]-عبد الرزاق ورقية، المذهب المالكي وتهذيب الأعراف المغربية، عن جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، موقع رواق المذهب المالكي على الشّبكة العنكبوتية.

[7]-ابن فارس، معجم مقايس اللّغة، مادة (وسط)، ج6، ص108.

[8]-ابن منظور، لسان العرب، باب وسط، ج7، ص427.

[9]--كتاب التفسير من فتح الباري، ج5، 186.

[10]-تفسير القرطبي، ج6، ص276، وتفسير الطّبري، ج7، ص16.

قال الطّبري: " أعدله مرويّ عن عطاء"، وقال القرطبي: "منزلة بين المنزلتين ونصف بين طرفين".[11]

ج-الوسطية في السّنّة النّبويّة: وردت كلمة (الوسط) ومشتقاتها في أحاديث كثيرة منها قوله -صلّى الله عليه وسلّم-: "إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض فإذا سألتم فاسألوه الفردوس الأعلى فإنّه أوسط الجنّة أو أعلى الجنّة"[12].

قال الحافظ ابن حجر: "أوسط الجنّة أو أعلى الجنّة المراد بالأوسط هنا الأعدل والأفضل"[13].

وقالﷺ: " البركة تنزل في وسط الطّعام فكلوا من حافته ولا تأكلوا من وسطه"[14].

والوسط هنا أشبه ما يكون بمركز الدّائرة ومنتصفها أي هي نقطة التقاء بين أطراف متساوية[15].

د-الوسطيّة في الاصطلاح: الوسطيّة إذن هي التّوسّط والاعتدال والاقتصاد، ففي عرفنا الشّائع تعني الاعتدال في الاعتقاد والمواقف والسّلوك والنّظام والمعاملة والأخلاق، وهذا يعني أنّ الإسلام بالذّات دين معتدل غير جانح ولا مفرط في شيء من الحقائق فليس فيه مغالاة ولا تطرّف أو شذوذ في الاعتقاد ولا تهاون ولا تقصير ولا استكبار ولا خنوع أو استسلام وخضوع ولا عبودية إلاّ لله تعالى، ولا تشدّد ولا حرج ولا تساهل أو تفريط في حقّ من حقوق الله تعالى ولا حقوق النّاس.

الوسطيّة هي الصّلاح والاستقامة مع الاعتراف بحرية الآخرين لاسيما الحريّة الدّينية دون تعسير أو إرهاق، وهذا ما ندب الإسلام إليه فقد تميّز بالتّوسّط والاعتدال والسّماحة واليسر ورفع الحرج والمشقّة في جميع الشّرائع والأحكام.

فالوسطية إذن هي حقّ وعدل ومطلب شرعيّ أصيل ومظهر حضاريّ رفيع ليتحقّق التّكامل والانسجام بين الأوضاع والتّعاون بين الجميع، واعتباراً للمعاني السّابقة يمكن لنا تسجيل بعض التّعريفات للوسطية منها: "أنّها مؤهّل الأمّة الإسلامية من العدالة والخيريّة للقيام بالشّهادة على العالمين وإقامة الحجّة عليهم"[16].

وقيل أنّ الوسطية هي: "...الحقّ بين باطلين، والعدل بين ظلمين، والاعتدال بين تطرّفين، والموقف العادل المتوازن الجامع لأطراف الحقّ والعدل والاعتدال، الرّافض للغلو إفراطاً وتفريطاً"[17].

ومن معاني الوسطية ارتباطها بمقاصد الشّريعة من حيث إنّ مقاصد الشّريعة وسطيّة في اعتبارها

---

[11]-المرجعين السابقين.

[12]-أخرجه البخاري، كتاب الجهاد السّير، باب درجات المجاهدين، رقم279، ج3، ص266.

[13]-ابن حجر، الفتح، ج12، ص16.

[14]-أخرجه الترمذي، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في كراهية الأكل في الوسط، رقم1805، ج4، ص229.

[15]-رانيا محمد عزيز نظمي، الوسطية في التربية بين المشروع والممنوع، مقال ضمن مجلة "حولية" كلية الدّراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، مصر، العدد26، مج3، 1431هـ/2010م، ص11.

[16]-فريد عبد القادر، الوسطية في الإسلام، ص29.

[17]-محمد عمارة، إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات، دار السلام، القاهرة، ط1، 1431هـ/2010م، ص701.

للمصالح الدّنيوية والأخرويّة والضّروريّة والحاجية والتّحسينية، وهي مدعاة لأن تهوي إليها أفئدة النّاس لينتفعوا بها ويسعدوا، يقول ابن عاشور في بيان آثار مراعاة واعتبار المقاصد التّحسينيّة:" وهي عندي ما كان بها كمال حال الأمّة في نظامها حتّى تعيش آمنة مطمئنّة، ولها بهجة ومنظر المجتمع في مرآى بقية الأمم حتّى تكون الأمّة الإسلامية مرغوباً في الاندماج فيها أو التّقرّب منها"[18].

المطلب الثّاني: معايير الوسطيّة وآثارها

-الفرع الأوّل: معايير الوسطيّة.

للوسطيّة معايير لابدّ من الوقوف عندها يمكن تلخيصها فيما يلي[19]:

1-ملازمة السماحة والاعتدال في التّكليف، بحيث لا تشق التّكاليف على النّفوس فتفسد تصرّفاتها ولا يؤدّي إلى الملل والسّآمة من أداء الواجب، وهذا واضح في ميزان الإسلام، فلا تجد عبادة يصعب بحسب المعتاد أداؤها.

2-ترك المغالاة في الدّين أو التّشدّد والتّعمّق فيه، لأنّ الغلوّ في كلّ شيء يترتّب عليه الضّجر ثمّ إهمال الواجب، أو التّكاسل في أدائه والانصراف عنه آجلاً أو عاجلاً.

3-الوسطية الإسلامية الجامعة ليست هي ما يحسبه ويتوهّمه العامة من المثقّفين والمتعلّمين: انعدام الموقف الواضح والمحدّد أمام المشكلات والقضايا المشكلة، بل إنّها على العكس من ذلك هي الموقف الأصعب الذي لا ينحاز الانحياز السّهل إلى أحد القطبين فقط...فهي بريئة من المعاني السّوقية التي شاعت عن دلالات ومضامين العوام.

4-الوسطية الإسلامية التي ننشدها ليست الوسطيّة الأرسطية كما يحسب ذلك كثير من مثقفي **الفلسفة الغربية وطلاّبها لأنّ الوسطية التي رأى بها أرسطو(384-322ق م) أنّ الفضيلة هي وسط بين رذيلتين فهي في العرف الأرسطي أشبه ما يكون في توسّطها بالنّقطة الرّياضية الثّابتة المستقلّة والتي تفصلها عن القطبين-أي الرّذيلتين- مسافة متساوية تضمن لها التّوسّط والوسطيّة، إنّها نقطة رياضية وموقف ساكن وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللّذين تتوسّطهما وليست هكذا الوسطية الإسلامية الجامعة كما حدّدها منهاج الإسلام؛ فالوسطيّة الإسلامية كموقف ثالث وجديد إنّما يتمثّل تميّزها وتتمثّل جدّتها في أنّها تجمع وتؤلّف ما يمكن جمعه وتأليفه من الصّفات المتناقضة في الطّرفين النّقيضين.**

مثاله: "الكرم" وهو خلق وسلوك وسط، ليس غريباً تماماً عن القطبين النّقيضين"الشحّ والإسراف" وإنّما هو جامع منهما سمات ومكوّنات هذا الموقف-الكرم-الجديد إنّه جامع للتّدبير والاقتصاد والبذل والعطاء.

---

[18]-محمد الطّاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النّفائس، الأردن، ط2، 1421هـ/2001م، ص307.

[19]-محمد عمارة، إزالة الشبهات، ص704.

ومثاله أيضاً "الشّجاعة" نجدها كوسط مغايرة لكل من "الجبن والتّهوّر" لا على النّحو التّام في المغايرة، وإنّما على النّحو الذي رفض الانحياز لقطب واحد، فجمع منهما "الحذر والإقدام" ليكوّن الموقف الوسطي الجديد.

وفي ضوء هذه المعايير المتميّزة والمميّزة لمصطلح الوسطيّة ومفهومها في التّصوّر الإسلامي نفقه كلّ المأثورات الإسلامية التي أشارت إليها هذه الخصيصة من خصائص منهج الإسلام؛ كقوله تعالى:" والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" (الفرقان67). وقوله:"ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً" (الإسراء29).

وفي ضوء تلك المعايير لمفهوم الوسطية امتاز المنهج الإسلامي عندما قاد الأمّة الإسلامية إلى الإبداع الحضاري الوسطي وكان ذلك من عوامل اتّساع رقعة الدّولة الإسلامية، ووصول الإسلام إلى أواسط إفريقيا وأوربا الغربية.

-الفرع الثّاني: آثار الوسطية.

إن للوسطيّة آفاقاً بعيدة المدى لأنّها إيجابية النّفع فتكاد السّلبيات أو الأخطاء تنعدم أو تكون في طريقها إلى الذّوبان أو النّسيان وذلك لما تفرزه من آثار اجتماعية ملموسة من إشاعة المحبّة وتنامي المودّة والابتعاد عن التّعصّب والأحقاد وتوفير الثّقة للآخرين وإحسان التّعامل معهم؛ فالوسطيّة داعية إلى الاستقرار والوئام وإسعاد الفرد والجماعة وتقدّم المدنية وازدهار الحضارة وشيوع الإسلام وأحكامه وتعاليمه فالوسطيّة مظلّة تستظلّ بها أحكام الإسلام وتعاليمه ومفتاح من مفاتيح قلوب النّاس المقفلة عن سماع الهدي النّبوي الرّشيد، ومن آثار الوسطيّة ما يلي:

1-الشّمولية: من آثار الوسطية في الإسلام أن جاءت أحكامه شاملة لمصالح الإنسان الدّنيوية والأخرويّة، فيجد الإنسان في تلك الأحكام ما يحقّق حاجة جسده ويسمو بفكره وروحه ويهذّب عواطفه وغرائزه إنّه يجد فيها ما يجعله يعيش حياةً متوازنة مستقرّة دون ميل ولا انحراف، وهذا ما جعل النّاس يدخلون فيه أفواجاً تاركين تلك الفلسفات والأديان التي لا تعرف كنه الإنسان ولا حقيقته ولا ما ينفعه أو يضرّه[20].

2-الواقعية: ومن آثار الوسطيّة في الإسلام أن جعلت من أحكامه أحكاماً واقعيّةً بمعنى أنّها تعيش واقع الإنسان موافقة لفطرته وظروفه لا يعيش مع الخيال كحال بعض الفلسفات المنحرفة، وهذا ما جعل النّاس يرغبون في أحكامه وشرائعه[21].

3-التّوازن: ومن آثار الوسطيّة أيضاً أن جاءت أحكام الشّريعة متوازنةً تعنى بأحوال الإنسان النّفسية والجسديّة والأسريّة والاجتماعية والوظيفيّة والمالية والاقتصادية والسياسية، فهو منهج متكامل متوازن.

[20]-يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مكتبة وهبة، ط2، 1301هـ/1986م، ص7.
[21]-رانيا نظمي، الوسطية في التّربية، ص24.

4-الجمع بين المرونة والثّبات: ومن آثار الوسطية في الإسلام أن جعلت من أحكام الإسلام جامعة بين الثّبات والمرونة؛ الثّبات في الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب، وفيه الثّبات على الأصول والمبادئ والمرونة في الفروع والشّؤون الدّنيويّة العملية.

وخلاصة القول أنّ هذه المرونة جعلت للإسلام القدرة على التّواجد في كلّ زمان ومكان حتّى وصل إلى أماكن بعيدة واقتنعت به شعوب كثيرة لأنّها وجدت فيه ملاذها ومصلحتها وخيرها ونجاتها في الدّنيا والآخرة[22].

يقول محمد عمارة في هذا الشّأن:" لقد كانت هذه الوسطيّة الإسلامية المنهج الذي يؤلّف في التصوّر الإسلامي بين الرّوح والجسد، والدّنيا والآخرة، والدّين والدّولة، والمقاصد والوسائل، والثّابت والمتغيّر، والقديم والجديد، والذّات والموضوع، والفرد والأمّة، والفكر والواقع، والمادية والمثالية، والعقل والنّقل، والخصوصية والعالمية، والاجتهاد والتّقليد، والدّين والعلم...تلك هي وسطيّتنا الإسلامية الجامعة صبغة الله التي أرادها لأمّة الإسلام"[23].

المطلب الثّالث: بعض مظاهر الوسطيّة في التّقعيد الأصولي والفقهي المالكي

من المعلوم أنّ أصول المذهب المالكي لم تؤسّس على يد الإمام مالك نصّاً، وإنّما إشاراته في الموطّأ ونصوصه في المدوّنة أمكن أتباع المذهب بالاستقراء معرفة أصوله؛ فمالك وغيره:" كانوا يصدرون في تفريعاتهم واجتهاداتهم عن أصول مرتكزة في ملكاتهم التي نمت بالممارسة الاجتهاديّة التّطبيقيّة؛ إذ لا يتصوّر اجتهاد وفقه من غير استناد إلى منطق اجتهادي وتأصيل منهجيّ لتكون عملية التّفريع والاجتهاد عملية جارية على وفق قانون مستقر منضبط وإلاّ فإنّ الفقه يصير إلى ضرب من الفوضى وعدم الوضوح في تأصيله ودلائله "[24].

وهذا يدلّنا على المنهج الوسطي الذي اعتمده فقهاء المالكية في التّأصيل والتّأسيس للقواعد الأصولية والفقهية؛ وفيما يلي بعض معالم ومظاهر الوسطيّة التي تميّزت بها بعض الوجوه الاستدلالية لاسيما في المدرسة المغربية.

-الفرع الأوّل: دليل ما جرى به العمل.

وهو وجه من وجوه النّظر يؤخذ به في الفتاوى والأحكام والنّوازل والأقضيات، وهو مرتبة استثنائية من الأصل، ذلك أنّ الأصل هو وجوب الأخذ بالرّاجح والمشهور، والعدول عنهما إلى المرجوح أو الضّعيف إذا اقترن بمسوّغ معقول يعدّ رخصة، وما كان حقّه ذلك وجب الاقتصار فيه على القدر الخادم للقضية من غير تعدّ أو تعميم إلى غيرها.

---

[22]-محمد قطب، التطور والثّبات في حياة البشريّة، دار الشّروق، ط5، 1303هـ، ص126.

[23]-محمد عمارة، إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات، ص704-705.

[24]-عمر الجيدي، مباحث في الفقه المالكي في الغرب الإسلامي، ص190-191.

يقول عمر الجيدي:" ...فإنّ هذا اللّون من التّشريع الذي اهتدى إليه الفقهاء هو عمل جليل، ومجهود في ميدان التّشريع كبير، إذ برهن الفقهاء بذلك على أنّهم قادرون على مجابهة المستجدّات والمشكلات الواقعة والمتوقّعة، وأعطوا بذلك الحلول للنّوازل والقضايا التي لم يرد فيها نصّ صريح أو ضمني، وأثبتوا بذلك أنّهم قادرون على ملاحقة التّطوّر البشري، والتّغيّر الزّماني كما دلّلوا على أنّ الفقه المالكي فقه قابل دائماً للتّطوّر لمرونته وقوّة قابليّته للاستمرار والبقاء واستيعابه لكلّ ما يجدّ على ساحة المعاملات"[25].

والإفتاء بمقتضى ما جرى به العمل يعدّ ضرباً من ضروب الوسطيّة التي تجعل من أحكام الإسلام أحكاماً متوافقةً مع واقع النّاس ومعايشهم ممّا يسهّل اندماج النّاس فيها، يقول عمر الجيدي متحدّثاً عن محاسن دليل ما جرى به العمل:"... إنّ ما خلّفه أسلافنا في هذا المجال يعطي الدّليل القاطع والبرهان السّاطع على أنّ الفقه ثابت بأصوله وقواعده، ومتحرّك بقياساته واستنباطاته، يلبّي حاجات النّاس جميعاً، ويرضي تطلّعاتهم، وليس قاصراً كما يزعم أعداؤه وخصومه ويفتري عليه المفترون من المتشرّعين الذين يجهلونه أو يتجاهلونه، يقول القانوني الفرنسي "إيزنسطرايس" في شأن ما جرى به العمل بعد أن وصفه بالفقه المتطوّر:"على أنّ القضاة المسلمين لهم فقه لا يزال يرتقي شيئاً فشيئاً حسب الضّرورة، ومن هذه النّظريّة يتمتّع المغرب بثروة من التّصانيف لا تخطر بالبال، ولا شبه لها بما توصف به أحياناً، إذ تجد به مؤلّفات فقهية جديرة بالاعتبار صنّفت خلال القرن الحادي عشر، وكتباً أخرى حديثة العهد يترآى الشّرع الإسلامي من خلالها شرعاً حيّاً ومجالاً لأفسح الأبحاث"..."[26].

فالقول بدليل ما جرى به العمل له مزايا عدّة لعلّ من اهمّها تجديد النّظر والبحث عن حلول قضايا العصر وما يجدّ للنّاس من أقضيات، وما فيه من مراعاة لأحوالهم وعوائدهم، وكلّ ذلك يصبّ في قصد التّيسير والرّحمة ورفع الضّيق والحرج، والتّيسير على النّاس، والتزام الوسطية المنشودة في العمل.

-الفرع الثّاني: النّفرة من الجدل الكلامي.

لقد تميّز فقهاء المالكيّة بالغرب الإسلامي بوسطيّتهم في الاستدلال بحيث كانوا لا يتعمّقون في الجدل الكلامي لغير الحاجة وإنّما يعتبرون بعض قواعد علم الكلام فيما تدعو إليه الحاجة المنطقية في تأسيس القواعد والأصول، وإلاّ فإنّ اهتمامهم كان بالجانب العملي من الفقه والاحتياط في ذلك أشدّ الاحتياط ممّا جعلهم ينفرون كلّ النّفور عن مناقشة القضايا الكلامية عديمة الجدوى، ولعلّ ذلك ما جعل الإمام الشّاطبي وهو من مالكية الغرب الإسلامي يسطّر في مقدّمته الرّابعة قاعدة مفادها:" كلّ مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية أو آداب شرعية أو لا تكون عوناً في ذلك

[25]-المرجع نفسه، ص198.
[26]-المرجع نفسه، ص199-200.

فوضعها في أصول الفقه عارية"[27].

صحيح أنّ هناك من فقهاء المالكية بالغرب الإسلامي من تأثّروا بالمدرسة المالكيّة العراقية التي شاع فيها الجدل والنّقاش الكلامي كأبي الوليد الباجي، ولكن لم يكن ذلك ظاهرة بارزة في المدرسة المالكيّة بالغرب الإسلامي.

-الفرع الثّالث: دليل مراعاة الخلاف.

وهي قاعدة مشهورة عند فقهاء المالكية عموماً وجدت تطبيقاً واسعاً فيما جدّ في حياة المغاربة باعتبارها بلداً يختلف عن المشرق العربي في أشياء كثيرة، ومن آثار وسطيّة هذه القاعدة أنّها حاولت التّقريب بين المذاهب واعتبار اجتهاداتهم والأخذ بها والاعتداد بها أيضاً، فهي محاولة لتضييق الخلاف ونبذ التّعصّب وإرساء مبادئ التوسّط والاعتدال عند النّظر في الدّليل ومآله[28].

-الفرع الرّابع: التّعليل المقاصدي.

تعتبر القواعد المقاصدية مفصلية في كيان التّشريع الإسلامي، كما تعتبر من مظاهر وسطيّة الفقه الإسلامي، وذلك من حيث أثرها الفاعل في الكلّيات الشّرعية والجزئيات أيضاً، ونظر عقلاء المجتهدين منصبّ في الغالب على اعتبار هذه بتلك، أعني الجزئيات والكلّيات، ولقد كان لفقهاء المالكيّة عناية متميّزة بالتّعليل المقاصدي الذي أسهم في أن يظهر الفقه المالكي بحلّة وسطيّة بديعة أسهمت في نشر تعاليم الدّين الإسلامي حتّى وصل أثر ذلك إلى إفريقيا وأوربّا، حتّى إنّ الشّاطبيّ بلغ به الوله بهذه العلاقة الوثيقة بينهما أنّ قرّرها في مواطن كثيرة من كتابه الموافقات، وممّا قاله في ذلك:"الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكلّيات، ثمّ إجراء الأدلّة الخاصة من الكتاب والسّنّة والإجماع والقياس، إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلّياتها، فمن أخذ بنصّ مثلاً في جزئيّ معرضاً عن كلّيّة فقد أخطأ، وكما أنّ من أخذ بالكلّي معرضاً عن جزئيّه...فإذاً الوقوف مع الكلّي مع الإعراض عن الجزئيّ وقوف مع شيء لم يقرّر"[29].

وقد ساق هذا التّقرير في معرض حديثه عن تمام التّماسك بين أجزاء الشّريعة، ولزوم اعتبار بعضها ببعض، فالجزئيات أساس الكلّيات، ولا يتحقّق قوام هذه الأخيرة إلاّ بسابقتها، والاستخفاف بالجزئيّ وإهماله مضيعة للكلّي نفسه في حقيقة الأمر، وفي ذلك خطر واضح على الشّريعة الغرّاء لأنّ تهميش الجزئي يوصل حتماً إلى تضييع الكلّي وعدم اعتباره.

ومن شدّة تمسّك الشّاطبي بمقرّراته التي يراها قطعاً ويقيناً لا يختلجه الرّيب أكّد على أنّه إذا أثبت الاستقراء قاعدة كلّيّة، وورد نصّ من الشّارع على جزئيّ يخالف القاعدة بوجه من وجوه المخالفة،

---

[27]-الشاطبي، الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز، دار الفكر العربي، بيروت، ج1، ص42.

[28]-عمر الجيدي، مباحث في الفقه المالكي بالمغرب الإسلامي، ص219.

[29]-الشّاطبي، الموافقات، 8/3.

فاللاّزم التّأنّي وعدم تشريع الحكم بإسقاط الكلّي ولابدّ من الجمع بينهما[30].

ومن تأمّل كلام الشّاطبي لاح له قصد التّوسّط في الاجتهاد والإفتاء، ويمكن التّمثيل لذلك بالعبارات المتكرّرة عند الفقيه المالكي ابن رشد الجد في كتابه (البيان والتّحصيل)، حين يريد ترجيح **وجه من الوجوه التي تحتملها نصوص المدوّنة، أو في بيان ما اختلف من أقوال مالك أو أصحابه، أو ما تعاندت فيه روايات الكتب المالكيّة المعتمدة، وليس هذا صنيعه وحده، بل ذلك ما جرى عليه أكثر** علماء المذهب وغيرهم كما سنوضّح إن شاء الله في المسائل الفقهية التي تأتي معنا في محلّها، ويدلّك على **ذلك عنوان كتابه: (البيان والتّحصيل والشّرح والتّوجيه والتّعليل في مسائل مستخرجة).**

ومن هذا ما ذكره المقّريّ في قواعده في ترجيح قول المالكيّة بتأثير الموت الحكمي وهي من المسائل المشهورة عندهم، قال:"من أئمّة المذهب علّلوا رجحان هذا الرّأي بقاعدة:(الحياة المستعارة كالعدم)[31].

ونجد الإمام القرافي المالكي، وهو يتحدّث عن وجه احتياط الشّرع في الخروج من الحرمة إلى الإباحة أكثر من احتياطه في الخروج من الإباحة إلى الحرمة، فيقول:" **لأنّ التّحريم يعتمد المفاسد، فيتعيّن الاحتياط له، فلا يقدم على محلّ فيه المفسدة إلاّ بسبب قويّ يدلّ على زوال تلك المفسدة، أو يعارضها، ويمنع الإباحة ما فيه مفسدة بأيسر الأسباب، دفعاً للمفسدة بحسب الإمكان...فلهذه** القاعدة أوقعنا الطّلاق بالكنايات وإن بعدت...لأنّه خروج من الحلّ فيكفي فيه أدنى سبب،...وجوّزنا **البيع بجميع الصيغ والأفعال الدّالة على الرّضا بنقل المالك في العرضين؛ لأنّ الأصل في السّلع الإباحة** حتّى تملك، بخلاف النّساء الأصل فيهنّ التّحريم حتّى يعقد عليهنّ بملك أو نكاح...فإذا أحطت بهذه **القواعد ظهر لك سبب اختلاف موارد الشّرع في هذه الأحكام وسبب اختلاف العلماء، ونشأت لك الفروق والحكم والتّعاليل"**[32].

وهذا في الحقيقة منهج بديع في التّوفيق بين النّصّ ومقصده الذي يبيّن مدى وسطيّة الفقه المالكي **والتي أسهمت بدورها في معالجة قضايا النّاس المتجدّدة والطّارئة جعلت منه باباً واسعاً في نشر** الإسلام سواء في أوربا أو إفريقيا.

المبحث الثّاني

أثر وسطيّة الحواضر العلمية بالغرب الإسلامي في المجتمعات الإفريقيّة

ترجع جسور التّواصل بين ضفّتي الصّحراء الإفريقية إلى العصور الغابرة، لكن المعطيات المتوفّرة تبيّن أنّه كان ظرفياً، وما إن وطأت أقدام الفاتحين المسلمين أرض إفريقيا الشّمالية حتّى بدأت أبصارهم ترنو إلى السّودان الإفريقي، ويأتي على رأس ميادين التّفاعل بين الطّرفين المجال العلمي لأنّ الشّمال

30–أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشّاطبي، ص212.

31–أبو عبد الله المقّري، القواعد، تحقيق: أحمد بن عبد بن حميد، طبعة جامعة أم القرى بمكة المكرّمة، 2/ 482.

32–القرافي، الفروق، 3/ 145.

الإفريقي آنذاك كان يمثّل مركز ثقل حضاري، فلا غرو أن تشكّل مصدر تأثير في الجانب الآخر.

ورغم الاضطرابات التي مرّت بها منطقة المغرب الإسلامي إن على المستوى المذهبي أو السياسي فقد كانت العلاقات مع السّودان الغربي لا تزداد مع مرور الوقت إلاّ رسوخاً، وقد شكّلت الحواضر الإسلامية التي ظهرت بالمنطقة المغاربيّة منذ حقبة مبكّرة ومراكز علمية كبرى مثل القيروان وتاهرت وفاس وقرطبة وبجاية وتلمسان وتوات...كما أدّت عدّة عوامل بعد مخاض عسير إلى انصهارها في بوتقة مدرسة واحدة ذات خصائص وسطيّة متقاربة، وساهمت هذه المراكز وغيرها انطلاقاً من تلك المدرسة في الإشعاع العلمي الذي بلغ مداه وصداه إلى بلاد السّودان الغربي (إفريقيا جنوب الصّحراء)، وفي هذا المبحث إن شاء الله نعرض أثر الوسطيّة العلمية للحواضر المغاربية في المجتمعات الإفريقية.

المطلب الأوّل: المراكز الحضرية المغاربية والإشعاع العلمي الدّاخلي.

لقد ارتبط استقرار الفاتحين الأوائل في الإسلام بإنشاء مراكز حضريّة كانت في البداية أقرب ما تكون إلى معسكرات مثل الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان، فضلاً عن الاستقرار بالمدن المفتوحة مثل دمشق والإسكندريّة وقرطبة...وبعد توطيد الفاتحين لدعائم وجودهم بتلك المناطق بدأت ملامح التّوجّه العلمي تلوح من ذات تلك الحواضر، وتفيدنا المصادر بأنّها صارت قبلة لجمّ غفير من العلماء والطّلبة، تتفاعل فيما بينها على نطاق لا تستشعر معه فواصل المكان وبعد الشّقّة وذلك كلّه بسبب الوسطيّة في العلم والثّقافة والسّلوك التي تميّزت بها الحواضر العلمية، والواضح أيضاً أنّ هذه الحركة العلميّة الدّائبة تأثّرت بمستويات متفاوتة بالصّراعات السّياسية والمذهبيّة التي عرفتها الكثير من أرجاء العالم الإسلامي، ولأنّ المجال المغاربي يقع بعيداً عن أعين السّلطة المركزيّة بالمشرق، لذلك شهدت بلاد الغرب الإسلامي تطوّرات سياسية متسارعة تمثّلت في ظهور إمارات أرادت الانفصال عن الحكم المركزي بالمشرق وفي خضم ذلك مراكز علمية وحواضر ثقافية ذاع صيتها في أوربا وإفريقيا تمثّلت بالخصوص في القيروان وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش وقرطبة وغيرها، ولم تكن الحياة العلمية بإحدى هذه الحواضر منعزلة عمّا عداها بل كان المجال المغاربي فضاءً مفتوحاً ينتقل داخله الطّلبة والعلماء بحرّيّة وانسياب بفضل الوسطية والاعتدال ونبذ التّعصب[33].

ويرجع الفضل في ذلك إلى بعض العلماء الكبار أمثال القاضي سحنون الذي جعل القيروان في مستوى العواصم الثّقافية العالمية، وبفضل الوسطية الفكرية والفقهية التي انتهجها التفّ حوله تلامذة من الأندلس ومن كلّ أنحاء الغرب الإسلامي، وبفضله تحوّلت إفريقية إلى مراكز علمية هامّة انتشر فيها الإسلام ومذهب الإمام مالك في الفقه، وكذلك أضحت سجلماسة وتاهرت من المراكز الثّقافية الكبرى في بلاد الغرب الإسلامي، وعلى صعيد آخر استفادت فاس كثيراً من بعض الاضطرابات

[33]-عثمان محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، إصدارات المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد128، سنة1988م، ص86.

السياسية التي شهدتها القيروان وقرطبة في استقطاب جزء من علماء الحاضرتين، وكان من ثمرات تلك الهجرات تأسيس فاطمة الفهرية القيروانية لمسجد القرويّين الذي غدا فيما بعد جامعة ومحور الإشعاع العلمي لحاضرة فاس[34].

المطلب الثّاني: مظاهر تأثير المدرسة المغاربية بوسطيّتها في الأقطار الإفريقية ومجتمعاتها

بعدما وقفنا على ذلك التّفاعل العلمي والفكري داخل الفضاء المغاربي بينه وبين المشرق الإسلامي، ثمّ ظروف تشكّل المدرسة المغاربية وخصوصيّاتها بقي أن نشير إلى ملامح إشعاعها الذي توحي به العديد من الإشارات المصدريّة على المجتمعات الإفريقية، ويمكن إيجاز ذلك في الفروع التّالية:

-الفرع الأوّل: نشر اللّغة العربية وإدخال المذهب المالكي إلى إفريقيا.

من المظاهر العلمية الوسطية في المجتمعات الإفريقية نشر اللّغة العربية وعلومها وإدخال المذهب المالكي بقواعده وأصوله الوسطية إلى إفريقيا فتقبّلته تلك الشّعوب واقتنعت به ودانت به لما رأت فيه من الوسطية والاعتدال والعدل والحق ورعاية المصالح واليسر ورفع الحرج فانتشرت المساجد وحلقات التّدريس، وحرص سكّان المجتمعات الإفريقية على اقتناء كتب ودواوين العربية والفقه المالكي، وانتشرت عندهم الخزائن العلمية والمكتبات الفكرية، وبمرور الوقت أصبحت تزخر بالعلماء والقضاة والمدرّسين والمثقّفين، وانتشرت بعد ذلك المدارس ودور العلم[35].

أ-اللّغة العربية: لاشكّ أنّ انتشار العربية على الأقل في المجال العلمي أو لحفظ كتاب الله وما يقتضيه أداء شعيرة الصّلاة قد اقترن بانتشار الإسلام، هذه الأسباب وغيرها جعلت اللّغة العربية تشقّ طريقها وسط المجتمعات الإفريقية فالإقبال على الإسلام والعلوم الوافدة معه ساعد في تثبيت المنهج الوسطي في التّديّن والسّلوك والمعاملة.

ولقد وصل اهتمام الأفارقة باللغة العربية أن أصبحت تلك الدول الإمبراطوريات تستند إليها في حكمها وقضائها لأنّه كان شرعياً وسطيّاً، وغدت بعد ذلك اللغة العربية لغة الكتابة والتّأليف[36].

ويبرز دور الحواضر المغاربية في نقل اللّغة العربية إلى أعماق إفريقيا السّوداء بشكل جلي في الخط المعتمد لكتابتها، والذي يتمثّل في الخط العربي المغربي، ويهمّنا هنا حيويّة التّواصل الحضاري بين الغرب الإسلامي والمجتمعات الإفريقية بفضل الوسطية التي تميّزت بها تلك الحواضر العلمية[37].

ب-المذهب المالكي: إذا كانت السّمة البارزة للمدرسة المغاربية تكمن في مرجعيّتها المذهبية

---

[34]-المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج1، ص339.

[35]-ابن عبد الحكيم وعبد الرحمان بن عبد الله، فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطّباع، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللّبناني، بيروت، ص72.

[36]-محمود اسماعيل، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصّحراء، ص326.

[37]-القشاط محمد سعيد، أعلام من الصّحراء، دار الملتقى للطّباعة والنّشر، بيروت ط1، 1997م، ص39-40.

المالكيّة، وبحكم التّفاعل التّاريخي الممتد عبر القرون فإنّه من الطّبيعي أن تعكس البيئة العلمية للمجتمعات الإفريقية وجنوب الصّحراء في كثير من ملامحها تلك السّمة بشكل واضح ومنذ أمد بعيد.

لقد صار المذهب المالكي بفضل وسطيته أحد روافد الثّقافة السّائدة بالسّودان في تقصّيه لمظاهر الحياة العلمية، وكان للمغاربة بحواضرهم العلمية الفضل الكبير في إدخال المذهب المالكي إلى أعماق القارة الإفريقية، والذي غدا مرجع الأحكام القضائيّة هناك، كما قام بعض السّلاطين في الممالك السّودانية ببعض الخطوات في هذا الاتّجاه، فقد ثبت أنّ السّلطان "منسى سليمان" جلب إلى مملكته الفقهاء من المذهب المالكي لما تميّزوا به من وسطيّة واعتدال في اجتهاداتهم[38].

-الفرع الثّاني: عوامل مساعدة على التّأثير العلمي المغاربي في إفريقيا.

يمكن إرجاع أسباب نجاح التّأثير العلمي المغاربي في أهل السّودان إلى عدّة عناصر تشترك في بيان مظاهر الوسطية في نشر الإسلام في تلك الرّبوع وفيما يلي أهم تلك العوامل[39]:

أ-عوامل اقتصاديّة: تجلّت بشكل كبير في الرّوابط التّجارية القويّة التي كانت بمثابة المفتاح والجسر الموصل لسائر العلائق الأخرى، فحاجة كلّ طرف إلى بضائع الآخر، وهذا لاشك يولّد شكل من أشكال التّواصل؛ فإنّ المعاملات التّجارية والحركة الاقتصادية للتّجار المغاربة كانت لها سمات الوسطية من تسامح ويسر واعتدال أسهمت في تعرّف المجتمعات الإفريقية على تعاليم الإسلام بطريقة عملية واضحة.

ب-عوامل بشريّة: تمثّلت في كون شطر كبير من سكّان الصّحراء إنّما كانوا امتداداً ديمغرافيّاً للسّاكنة البربريّة التي كانت تستوطن معظم القسم المغاربي ممّا قوّى إمكانية التّواصل اللّغوي والفكري والثّقافي وخلق حوّ من الوسطيّة والاعتدال التي أسهمت في نشر الإسلام وتعاليمه.

ج-عوامل دينية: بفعل كثافة هذه الرّوابط التّجاريّة وكثمرة للثّقة والتّفاعل الإيجابي بين الطّرفين المغاربي والإفريقي بدأ الإسلام ينتشر في صفوف القبائل الإفريقية تدريجيّاً، وتمّت علاقات مصاهرة مع التّجار الوافدين وتآخ في الدّين كلّ ذلك أسهم في انتقال العلوم الإسلامية بوسطيّتها إلى تلك البلاد.

إنّ دخول فئات واسعة من أهل السّودان في الإسلام تمّ في غالب الأحيان بدون غزو بل نبعت من حاجتهم إلى ما ينظّم حياتهم العامة ويملأ عليهم ذلك الفراغ العقدي والدّيني والفكري والسّلوكي فلم يجدوا أمامهم سوى المغاربة الذين توافدوا عليهم لأغراض كثيرة كانت محصّلتها انتشار الإسلام الوسطي في مجتمعات إفريقيا.

د-عوامل سياسية: تكلّل انتشار الإسلام هناك بقيام عدّة دول وممالك أشهرها وأقدمها مملكة "غانا"

---

[38]-العمري، مسالك الأبصار في مسلك الأمصار، تحقيق: سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م، ج4، ص162.

[39]-ابن خلدون، المقدّمة، ص353.

تلتها مملكة "مالي" ثمّ مملكة "تسونغاي" التي مثّلت إمبراطوريات الإسلام الكبرى في أرض السّودان، انضافت إليها إمارات أخرى وتعزّزت عرى التّواصل بينها وبين دول الشّمال الإفريقي خاصة في عهد الحفصيين والزّيّانيين والمرينيين، ارتفعت إلى مستوى تبادل السّفارات.

وقد أسهمت الوسطية الفكريو التي تمتّع بها العلماء والفقهاء في حلّ أصعب المشكلات السياسية حتّى قال أحد سلاطينهم: "لولا العلماء لهلكنا"[40]، وقد تواترت الشّهادات بهذا الشّأن.

-الفرع الثّالث: مظاهر الوسطية في تأثير حاضرتي فاس ومراكش العلميتين في الشّعوب الإفريقية.

إذا اتّضح لنا ممّا سبق أصالة وعمق التّأثير العلمي المغاربي بوسطيّته في أصقاع إفريقيا وجنوب الصّحراء فمن نافلة القول الكشف عن مساهمة كبريات المراكز العلمية في تاريخ إفريقيا الشّمالية والغرب الإسلامي " فاس ومراكش".

تدلّ بعض الوقائع على أنّ مدينتي فاس ومراكش كانتا مرجعاً هامّاً في التّأطير العلمي لعلماء السّودان، ففي عهد السّلطان "منسى موسى" بمفرده سجّل أنّه أرسل الفقيه القاضي "كاتب موسى" للدّراسة بفاس، ويبدو من سياق تلك الوقائع أنّه كان ضمن وفد علمي.

كما رحل علماء كثر من الأقطار الإفريقية إلى بلاد المغرب من أجل التّكوين والتّحصيل العلمي منهم العالم "مخلوف بن علي بن صالح" الذي سافر إلى المغرب الأقصى وأخذ عن أبي بن غازي الذي تولّى الإمامة بجامع القرويين وانتهت إليه الرياسة في العلم والفتيا في فاس، وبعدها عاد إلى السودان لينشئ أكثر من حاضرة علمية وكان له الفضل في نشر الفقه المالكي في تلك الرّبوع بوسطيّته واعتداله[41].

كما يعدّ أبو العبّاس أحمد بابا التنبكتي أشهر علماء السّودان قدوماً على مراكش، وإن تمّ ذلك رغماً عنه، وفي ظروف مأساويّة، وقد جلبه المنصور فيما جلب من فقهاء السّودان إلى مراكش، ومكّنته رحلته القسرية من إفادة العديد من الطّلبة والعلماء المغاربة[42].

وعلى صعيد آخر استقرّ العديد ممن درسوا بفاس ومراكش بأرض السّودان منهم علماء مثل "إبراهيم الخضر" سكن بالسودان وكان ممن يكتبون للسلطان آنذاك، ومنهم أيضاً التّجّار وذوي الأموال وهؤلاء كانوا من المتعلّمين[43].

ويصف أحد الباحثين ذلك التّواصل الفكري الذي كان قائماً في السّودان والمغرب بقوله: " الحركة الثّقافية والعلمية كانت تواكب الحركة الاقتصادية، حيث لا تخلو قافلة واردة من المغرب إلى السّودان

---

[40]-الخشني محمد بن الحارث، طبقات علماء إفريقيا، ص334.

[41] -سلامة محمد، ابن غازي العالم العامل المجاهد، ضمن مجلة الحسنية، العدد3، مطبعة فضلة، المحمدية، 1982م، ص551-579.

[42]- محمود اسماعيل، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصّحراء، ص326.

[43]- المرجع نفسه.

من فقهاء وعلماء يتوزّعون على أهمّ الحواضر وكانت "تمبكتو" مثلاً تعتبر سليلة فاس ومراكش لا ينقطع التيّار الفكري بينهما"[44].

عموماً يلاحظ أنّ التّفاعل بين حاضرتي فاس ومراكش مع المجتمعات الإفريقية انتقل في إحدى مراحله إلى الأخذ والعطاء فنتج عن ذلك تأسيس وتنظير وتطبيق وممارسة الوسطية ممّا ساعد في تثبيت الإسلام وتعاليمه هناك.

-الفرع الرّابع: مظاهر الوسطية في تأثير حاضرة بجاية العلمية في الشّعوب الإفريقية.

إنّ الحديث عن تأسيس بجاية كحاضرة علمية كبرى تميّزت بوسطيّتها الفكرية بحيث استقطبت العديد من العلماء والطّلبة من شتّى أنحاء العالم وفي تخصّصات علمية متعدّدة يعود إلى عصر الملك "الناصر بن علناس الحمّادي" بحيث أضحت عاصمة تضاهي عواصم الدّنيا الاقتصادية والعلمية وجاوز سكّانها مائة ألف نسمة، وقد زارها نخبة من العلماء الأندلسيين فطبعوا الثّقافة بطابع الوسطيّة والاعتدال في شتّى التّخصصات العلمية التّجريبية والعقلية والإنسانية، وأسّس بها معهد علميّ يسمّ " معهد سيدي التواتي" الذي كان مركزا لتحصيل العلوم وقد تميّز بوسطيّته، فقد كان يحاضر فيه علماء من اسبانيا وإفريقيا والمشرق العربي والإسلامي الذين كان لهم الدّور الأكبر في صناعة الفكر الوسطي في تلك الحاضرة، وقد رحل كثير من طلاب وعلماء بجاية إلى بلاد السودان وصحراء إفريقيا وندبوا أنفسهم لواجب نشر الإسلام وتعاليمه، كما كانت بجاية قبلة لطلاب إفريقيا الذين نهلوا منها العلوم ورجعوا إلى بلادهم وأصبحوا دعاة وعلماء ومدرّسين في حواضرها العلمية[45].

-الفرع الخامس: حاضرة تمبكتو العلمية كثمرة لوسطيّة حواضر الغرب الإسلامي.

يعود تأسيس مدينة تمبكتو إلى طوارق "مغراسن" في حوالي1100م على ضفّة نهر النّيجر، حينما اتّخذوا من مكانها مشتاً لهم في حدود ذلك التّاريخ، وتعني "بئر بكتو" وبكتو اسم لامرأة عجوز تسكن بالقرب منه[46].

وبمرور الزّمن شهدت تنبكتو انتقال النّاس قاصدينها للسكن فيها والاستقرار هناك فتوسّعت نتيجة الاستقرار السياسي وكان من مستوطنيها كثير من العلماء فحلّ بها الرّخاء والتطوّر في مجالات عديدة وزادت شهرتها العلمية، وصفها بعضهم بأنّها:" مدينة لا نظير لها في البلدان من بلاد السّودان إلى المغرب وهي تحب الأجانب وتعطف عليهم خاصة أهل العلم"[47].

---

[44]-لطيفة سميرس، العلاقات المغربية السّودانية في سياسة الأسر الحاكمة بالمغرب، مجلّة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، العدد15، 1989م، ص157.

[45]-ليلى ديب، الحواضر العلمية المغاربية في إفريقيا -بجاية نموذجاً- ضمن ملتقى عقبة بن نافع الفهري، الذي يعقد بولاية بسكرة، مطبوع في كتاب، رجب1434هـ، ماي2013م، ص370.

[46]-عبد القادر زبادية، ملامح الحركة التّعليمية في تمبكتو، المجلة التّاريخية المغربية، العدد8/7، جانفي 1977م، تونس، ص38.

[47]-المرجع نفسه.

قال عنها وعن وسطيّتها أحمد بن بابير الأوراني: " إنّها مدينة في غاية الحسن والجمال وهي قاعدة بلاد السّودان فيها ما تشاء من دين ودنيا، ولم تزل منذ تأسيسها دار علم وفقه وصلاح وولاية"[48].

هذا حين كانت الوسطية والاعتدال سمتها ولكن لما دخلت عليها الأفكار المتطرّفة بسبب أطماع القوى الغربية المستعمرة فيها فبثت فيها النزاعات والحروب والفتن السياسية وغيرها فدمّرت الكثير من كنوزها العلمية والعمرانية والحضارية، والله المستعان.

خاتمـة

وفي الختام وبعد رحلتنا في حواضر الغرب الإسلامي العلمية وما تميّزت به من وسطيّة واعتدال في مناهجها، وذلك الأثر البالغ في نشر الإسلام وتعاليمه في بلاد السودان وصحراء إفريقيا وذلك التّأثير الواضح في الذّهنية والعقلية الإفريقية يمكن لنا تسجيل النّتائج التّالية:

1-المذهب المالكي ذا خصوصية وسطية اتسمت بها كثير من أصوله الاستدلالية التي أضفت نفس الوصف على فروعه الاجتهادية.

2-أنّ الفقه في ديار الغرب الإسلامي تميّز بالوسطيّة نظراً لخصوصيات المنطقة الجغرافية والإقليمية والثقافية والبشرية.

3-أنّ الوسطيّة فكرة تنويرية للعقل الإنساني جاء بها القرآن الكريم وندبت إليها السّنّة النّبويّة، وهي خاصية من خصائص الشّريعة الإسلامية التي بها توافق العقل والفطرة لتجد طريقها إلى قلوب الأفراد والشّعوب للاقتناع بدعوتها وتعاليمها.

4-أنّ للوسطية معايير وآثاراً لابدّ من ملاحظتها كالمسامحة والاعتدال في التّكليف، والشّمول والواقعية والتّوازن والجمع بين الثّبات والمرونة في المواقف والأحكام، وهي من أهم العوامل المساعدة على الاستقرار والأمن والرّخاء.

5-أنّ المراكز والحواضر العلمية في الغرب الإسلامي تميّزت بنهجها الوسطي من خلال تنوع العلوم التي تدرّسها وخبرات مدرّسيها واستقبالها لعدد كبير من الطلاّب من مختلف البلدان فبنيت على التوسّط ونبذ التعصب والتّطرّف والعرقية، وهذا ما جعل لها جسر تواصل لاسيما بالشعوب الإفريقية من أجل نشر الإسلام وتعاليمه، وهذا بالطّبع لا يلغي خصوصيات تلك الشعوب التي اقتنعت به ووجدت فيه المرجعية التي تساعدها في البناء والتّعمير.

6-أنّ للرّحلات العلمية والفتوحات الإسلامية الأثر البالغ في إظهار وسطية الإسلام قولاً وعملاً وتطبيقاً ومثّلت ملامح التّواصل التّاريخي بين مجتمعات الغرب الإسلامي والشّعوب الإفريقية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين...

[48]-أحمد بن بابير، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية، المكتبة الزيدانية، نيامي النيجر، ص90.